اللورد بيرون

ولد في ٢٢ يناير سنة ١٧٨٨ وتوفي في ١٩ ابريل سنة ١٨٢٤

اليوم يحتفل الانكليز واليونان بمرور مائة عام على موت الشاعر بيرون ، يحتفل به الانكليز لانهُ من اشهر شعرائهم وان كان النقّاد منهم لا يميلون الى وضعهِ بين شعراء الطبقة الاولى. ويحتفل به اليونان لانهُ وحّد نفسهُ وايامهُ في جهادهم الوطني فبذل مالهُ ونشاطهُ وحياتهُ في النضال الذي شبوا نارهُ في سبيل الاستقلال والحرية،

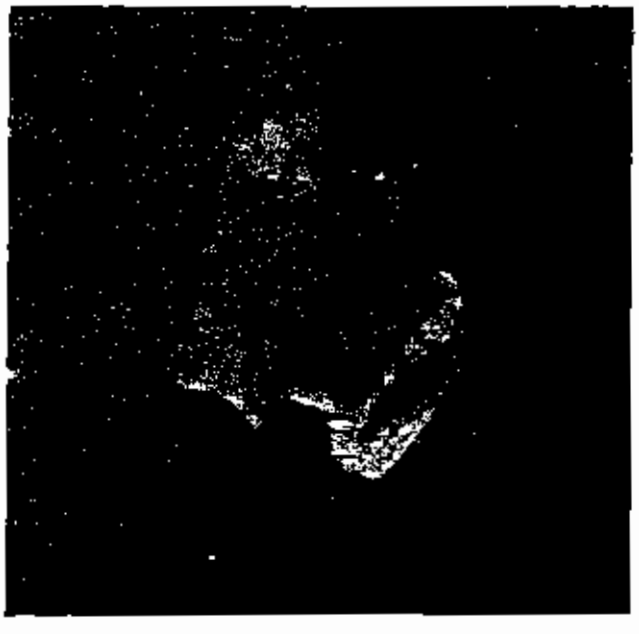

اللورد بيرون

وقد كان للحرية في اقصى اقصاء نفسهِ دويٌّ وحنين سطّرهما على القرطاس شعراً بليغاً وعلى صفحات الايام جهاداً مجيداً

اما انا فما شأني حتى ازجّ نفسي بين الانكليز واليونان في يوم ذكراهُ هذا ! على ان الصلة بيننا يجب الاّ تنفصم عراها بمثل هذه السرعة. ففي حياة بيرون وشعرهِ كثير مما يجد في نفس الشاب صدى ويترك فيها اثراً ، لما يتزاحم فيهما من كرم

للمجتمع وما فيهِ من المداجاة والرياء ،وكلف بالحرية والتفلت من القيود والتقاليد، ووصف كئيب لما عاناهُ من الآلام الجسدية والنفسية ، وغرابة في حوادث غرامهِ الروائية حتى لتفوق القصص الموضوعة . فالوتران الحساسان اللذان ينقر عليهما بيرون هما وتر الشكوى من الزمان ووتر الكآبة والحزن واي نفس اولى من نفس الشاب بترديد انغامهما !

ذلك كان الاثر الذي تركهُ في بيرون يوم قرأت جانباً من شعرهِ في بيروت . لذلك كان حقًّا عليَّ ان اقتنص اول فرصة تسنح لي لاعيد النظر في بعض قصائدهِ وهل من فرصة اصلح من يوم الاحتفال بذكرى وفاتهِ ؟

فاخذت كتيباً يحوي منتخبات من شعرهِ وجعلت اتنقل على صفحاتهِ فمن انشودتهِ الموسيقية في « فتاة قادش » الى قصيدتهِ « يا ليتني كنت صبيًّا خاليا » ثم الى اغنيتهِ في « غادة اثينا » التي يعرفها كل ناطق بالانكليزية ثم الى قصيدتهِ التي يصف فيها « فناء جيش سنحاريب »[1] حيث ترسم الكلمات باصواتها ولغم تركيبها جيوشاً ملتحمة وخيولاً محمحمة وسيوفاً برّاقة وصفوفاً تذوب كرقع الثلج في اليم الثائر او تذوي كاوراق الاشجار في الريح السموم

« ونشيد البحر » ! الذي يختم بهِ قصيدة من ابلغ قصائدهِ الطويلة « تشيلد هارولد » . ففي الدور الاول منهُ يتجلى نفورهُ من الاجتماع واستئناسهُ بالوحدة والانفراد « لا لانهُ يبغض الانسان بل لان حبهُ للطبيعة اشد » ثم تمرُّ في مخيلتهِ صور الدول التي نشأت ودالت وما طرأ على العمران من تغير وانقلاب فيخاطب البحر قائلاً « . . . والعالم في تغير مستمر الاَّ يا بحر ! لا يقدر الزمن ان يخطَّ على جبهتك الزرقاء اساريرَ الهرم ولا ان يرسم على محياك آثار الضعف والشيخوخة » ثم « ايتها المرآة الصقيلة التي ترى فيها صورة الخالق في كل زمان سواء كنت ساكناً او ثائراً اثناء النسيم العليل او في العاصفة الهوجاء حول القطب ثلجاً وجليداً او عند خط الاستواء خضماً زاخراً عظيماً . . . »

ثم قصيدة كتبها قبيل موتهِ موضوعها « الآن وقد بلغت السادسة والثلاثين » وفي كلّ كلمة من كلماتها معنى من معاني القوة والرجولة . ولكن أهي الرجولة الناشئة عن حب الحياة او عن اليأس منها ؟ اتمعهُ وقد جاء يختمها بقولهِ مخاطباً نفسهُ : —

(١) سنحاريب احد ملوك اشور حكم من سنة ٧٠٥ الى سنة ٦٨١ قبل المسيح

« انا كنت تأسف لهذا الشباب فلماذا تحيا ؟ ان ارض الموت الشريف هنا . فنهوضاً الى الميدان . وصعّد فيه انفاسك الاخيرة »

ثم قصيدة « الظلام » ويا لهول الصورة التي ترسمها . « كون بلا نور » « حياة بلا شعاع » . قرأتها مثنى وثلاث وحاولت ان اتصور ما ترسمهُ من الصور ولكن كيف السبيل الى ذلك والشمس مشرقة الجبين والنور يكتنفني من كل ناحية . فقلت لا بدَّ ان يخيّم الظلام ولكن ايخيّم الظلام في شوارع القاهرة ؟ حتى ولا في العطفات النائية المظلمة في القبة الزرقاء نجوم لا عديد لها . لا ! لا ! لا مفرَّ من النور . وان يكن بيرون قد نفذ بخيلتهُ الى نهاية الكون اللانهائي في الزمان والمكان، فرسم تلك الصورة المروعة فخير لي ان انصرف عنها الى ما هو ابهج للنفس من شعره ولو في ميادين القتال ومعترك الآلام

***

اللورد بيرون علَمٌ من اعلام الشعر الانكليزي في اوائل القرن التاسع عشر بل من اشهر اعلامه في كل العصور . بلغ في حياته ذروة من المجد والشهرة لا يطمع بمثلها عظيم في الارض . حتى غيته[٢] شاعر الالمان العظيم واحد كبار المفكرين في جميع الامم قال ان شكسبير وبيرون ذروتا الادب الانكليزي السامي . ولعل الشهرة البعيدة التي نالها بيرون سببها اشتهارهُ بجمال الصورة ونبل المقام وكثرة اسفاره ورحلاته ومأساة زواجه وقصص حبه وغرامه وفوق ذلك كله انتصارهُ لمبدإ الحرية والاستقلال الرائج حينئذٍ في اوربا واشتراكهُ في حرب اليونان وموتهُ في احدى ساحاتها . اضف الى ذلك ان ما ضمنهُ اشعارهُ من وصف احواله الخاصة وقد ضرب في معظمه على وتر الكآبة والشكوى جعل لهُ من عاشقي تلك النغمة الكثيرين في ذلك العصر اتباعاً وانصاراً يرددون اسمهُ ويتمثلون باشعاره لانهم سمعوا فيها صوتاً يفصح عما يخالج نفوسهم ويخلب لبابهم

ويصعب كثيراً ان يعيّن لهُ مقام بين شعراء الانكليز واديائهم لانهُ ليس منهم حقيقةً [٣] فان حياتهُ الكثيرة المناحي ونفسهُ المتشعبة الضاربة في جميع مناهج الحياة

(٢) غيته Goethe شاعر وفيلسوف الماني (١٧٤٩ — ١٨٣٢)

(٣) كتب البرنس مرسكي احد كبار النقدة مقالا قال فيه ان اللورد بيرون جزء من الادب الاوربي الذي لا يختص بشعب من الشعوب او دولة من الدول ومن اعلامه فولتر وغيته وهيغو وتولستوي واوسكار وايلد وكبلنغ وولز . فمقامه في الادب الاوربي هذا لا يكون رهن الحكم الذي يحكم به نقاد الانكليز بل رهن الحكم الذي تحكم به اوربا نفسها

وعواطفهُ الصاخبة واعمالهُ المتناقضة تنم عن شخصية مطلقة لا يمكن ان تحصر في حدود او تكبل باغلال . لكن اذا اعتبرنا الاحوال التي نشأ فيها وترعرع ، واصابتهُ في رجلهِ التي شوهت جسمهُ طول حياتهِ ، و فقدهُ التربية البيتية الصالحة في طفولتهِ والصداقة الحكيمة المرشدة في شبابهِ ، اذا عرفنا ذلك واعتبرنا حالة المجتمع الانكليزي في ذلك العصر وما في الطبقة الشريفة منهُ من ارتخاء في الاخلاق وآداب الاجتماع ملنا الى الصفح عما كان يحسب اكبر هفواتهِ ، والتغاضي عما في حياتهِ وشعرهِ من المرارة والحدة والصخب والكآبة ، فنعطف على وحدتهِ وتوقهِ الشديد الى من يعطف عليهِ ، ونعجب بنبوغهِ فندعوهُ حينئذٍ مع ماكولي(٤) « اشهر رجال الانكليز في القرن التاسع عشر »

كتب ماكولي سنة ١٨٣٠ عن بيرون ما ترجمتهُ « لا نشك في ان اشعار بيرون ستغربل وتنخل . فينبذ منها ماكان يحسب افضلها في زمنهِ . على اننا لا نرتاب ايضاً انهُ بعد التحقيق والتمحيص يبقى كثير من شعرهِ خالداً بخلود اللغة الانكليزية »

ولقد صدق ما قالهُ ذلك الناقد الفيلسوف . مرَّ الزمن الذي كان فيهِ بيرون معشوق الفتيان (والفتيات ايضاً) يقلدونهُ في لبسهِ وما اشتهر عنهُ في الاندية والمجتمعات ويتمثلون باشعارهِ واقوالهِ ويروون حوادثهُ ونوادرهُ . مرَّ ذلك الزمن فلم يبق لنا سوى ما دوَّنهُ على القرطاس من فكر سام او عاطفة سنية تقيس مقامهُ في الادب بما يثيرهُ فينا من اعجاب بالجمال الرائع او ادراك للحكمة والحق ، غير مراعين في ذلك ما كانت تثيرهُ ذكرى اعمالهِ من اعجاب او استنكار

ففي كثير من شعرهِ اعادة لا موجب لها وفي بعضهِ ما ينبو عنهُ الذوق العصري وفي اشعارهِ القصصية كثير مما هو مملٌّ لانهُ لم يكن روائياً بطبعهِ . على ان هذه الاشعار المملة تحوي في بعض الاحيان مقطعات فريدة من الوصف البديع فيصور الشاعر بكلمات قليلة المشهد الذي يصفهُ واذا كان المشهد طبيعياً بثَّ فيهِ روحاً حتى كأنهُ حي كما ترى في المقطع الآتي : —

« هذه هي الساعة حين تسمع من الاغصان نفمات العندليب الشجية . هذه هي الساعة حينما تبدو عهود المحبين حلوة في كل كلمة يهمسونها . والنسيم العليل ، والماء الصافي يطربان الاذن بموسيقاهما . الندى رطَّب كلَّ زهرة وفي الفضاء اجتمعت

(٤) ماكولي Macaulay مؤرخ وناقد انكليزي (١٨٠٠ — ١٨٥٩)

الزُّهر . وقد أزداد ازرقاق البحر . وقد تم لون الاوراق . وفي السماء ذلك الابهام الواضح الذي يعقب انحدال النهار . والشفق يذوب امام القمر . . . »

على اننا لا يحق لنا ان نطلب في شعرهِ جمال الصياغة الفنية . فبيرون من اكثر الشعراء تقلباً فحيناً يحلق الى اوج الجوزاء وفي اقل من لحظة يهبط الى الحضيض . فلا ترى في شعرهِ مثلاً ما يضاهي قوة الخيال في بعض قصائد كيتس[٥] او الموسيقى الشعرية المتواصلة واللطف الحنو الذي تراهُ في قصيدة شلي[٦] « النيم » ولا تعثر على اجادة تنسن[٧] في الصياغة الفنية في بعض اناشيدهِ لان بيرون كفنان احطُّ من هؤلاء مقاماً . لكنهُ يرتفع في لحظات قليلة الى مستوى الشعر الغنائي الرفيع فيباري فيهِ شلي هاك ما يقولهُ في قصيدتهِ « ماتفرد » والكلام فيما يلي على لسان روح المكان الموصوف : —

« الجبل الابيض ملك الجبال . توجتُهُ عليها منذ زمن بعيد . على عرش الصخور في حلل الغيوم . والتاج من الثلج . حول وسطهِ الحراج . وفي يدهِ جرف الثلوج الساقطة . لكن قبل ان يسقط الجرف قاصفاً كالرعد يجب ان يقف ليتلقى الاوامر مني . والنهر الجليدي البارد الذي لا استقرار لهُ يتقدم يوماً فيوماً . لكن انا الذي آذن لهُ بالمسير . او البقاء مع سائر الجليد . انا روح المكان . استطيع ان اجعل الجبل يخضع لي . او ازعزع اركانهُ . . . . الخ »

واذا اجلنا الطرف في رواياتهِ التمثيلية رأينا من جلال الفكر واتساع التصور والنفاذ الى الطبيعة البشرية والبراعة في رسم الصفات مما يدهشنا في شاعر اشتهربانهُ غنائي . وهناك ادلة على انَّ هذه المزايا كانت تزداد رسوخاً ووضوحاً في سنيهِ الاخيرة . ومن يستطيع ان يقول الى اي حدٍّ كانت بلغت في نموها لولا موتهُ الباكر

يقول النقاد ان بيرون لم يكن رسولاً اي لم يكن ذا رسالة يؤديها لابناء نوعهِ . وسواء كان ذلك صحيحاً ام لم يكن فلا ريبة في انهُ كان يمثل مبادىء معينة ومُثُلاً محدودة واضحة لا ينفكُّ عن ذكرها في شعرهِ والتعبير عنها في اعمالهِ . كان يكرهُ الرياء والمداجاة . وقصيدتهُ « دون جوان » اطول قصائده وفي نظر البعض اعظمها هي احتجاج على

(٥) كيتس Keats شاعر انكليزي (١٧٩٥ — ١٨٢١)
(٦) شلي Shelley شاعر انكليزي (١٧٩٢ — ١٨٢٢)
(٧) تنسن Tennyson شاعر انكليزي (١٨٠٩ — ١٨٩٢)

ما في المجتمع من احترام اهل الرزائل. كذلك كان اصيراً للحرية سواء في الدين او السياسة. وفي قصائده الطويلة « كتشيلد هارولد » « واسير شيّون » اطلق سهاماً نارية على الظلم والاستبداد وفي قصيدته « قايين » وبعض قصائده الاخرى نال من التعصب الديني وعبادة الاوهام والخرافات . فالمذهب الذي دعى اليه في شعره وحياته انما كان مذهب النور

منذ نحو اربعين سنة كتب الاديب الناقد الانكليزي مثيو ارنولد[٨] قائلاً متى بزغت شمس القرن العشرين اتضح ان بيرون ووردزورث[٩] اعظم شعراء القرن المنصرم . وبعض النقدة الآن يضيف الى هذين الاسمين اسمي برونتغ[١٠] وتنسن وبعضهم يضع شلي وكيتس فوق هؤلاء جميعاً على انهُ ما من احد ينازع في ان مقام بيرون بين الخالدين

***

تلك بايجاز اوضح ما يرى في حياة بيرون وشعره كما تتراءى لي على اني لا ارى بدّاً من التوسع قليلاً في رسم صورة الكآبة التي كان لها النصيب الاوفر من حياته وشعره الحافل بتأمل المتشائم في نصيب الانسان من الحياة . كان موقف بيرون ازاء زمنه موقف المعري اوموقف هملت بطل شكسبير ازاء الحياة. اصغ الى بيرون ينشد: —

« وا اسفاهُ ! ما الحياة سوى حلم لا يوقظنا منهُ غير الموت وما عدا ذلك اوهام تتغير بتغيّرنا كل منها يخدعنا بدورهِ حتى يسدل الموت ستارهُ فنرى الحقيقة الرهيبة. أليس من الغريب انهُ كلما ازداد شعورنا بان الحياة عبء ازداد تمسكنا باهدابها بكل ما فينا من قوة ؟ هذا دليل آخر على ما فينا من طبيعة الحيوان لانهُ لو كان الروح العالي الذي نفحهُ فينا الخالق متسلطاً على الطبيعة الحيوانية لكنا نُسرُّ بطرح العبء الذي يثقلنا وننشُ منهُ لنطلب وجوداً آخر يتغلب فيهِ النور على الظلام . من بلغ الخامسة والثلاثين ولم يشعر بالسأم يسمُّ الجذل القليل الذي يكون نصيبهُ في بعض الاحيان . نبدأ الحياة برجاء الحصول على السعادة ثم يتكشف لنا ان ذلك محال فنطلب الملذات لكن حتى الملذات تتسلط من قبضتنا فننتهي بالتوق الى الراحة ولا ننال الراحة الاّ بالموت »

---

(٨) مثيو ارنولد Mathew Arnold شاعر وناقد انكليزي (١٨٨٨ — ١٨٨٩)
(٩) وردزورث Wordsworth شاعر انكليزي (١٧٧٠ — ١٨٥٠)
(١٠) برونتغ Browning شاعر انكليزي (١٨١٢ — ١٨٨٩)

كتب ذلك سنة ١٨٢٣ قبيل ان اوقظهُ «الموت من حلم الحياة واوهامها» لكن فلسفتهُ في الحياة كانت تدور بوجه عام على ماضٍ خالٍ من الرضى وحاضرٍ خالٍ من السرور ومستقبل خالٍ من الرجاء . خلوٌّ بخلوٌّ ! ما هذا ! ايستطيع احد ان يرى الحياة خلاء الى هذه الدرجة حتى في اقصى ساعات اليأس والقنوط ؟ انا لا استطيع

ولعلَّ السبب في هذه الكآبة بل في هذا القشاؤم حياتهُ البيتية سواء لما كان فتى ولما صار رجلاً . هاك ما قالهُ في شعرهِ ذاكراً صباهُ :

« الا نسمع ان الشباب سعادة وان ادوار الحياة التي تتلوهُ لا تجلب غير الالم . وانهُ حينما ينتهي دور الشباب فلا مردَّ لما فات . فاذا كان حتى شبابنا لعنة فالى ما نتطلع في المستقبل غير الشقاء

« هذه هي الحياة التي تتمسك بها ، هذا هو الوجود الذي نبذل شهرتنا من اجله

« اني لاوثر الموت على ان اعمل لأحيا اذا كان هذا نتيجة عملي وجهادي

« فلأهوِ غير ملطخ بالذل ولامت الآن متألماً وليبدل النسيان ستارهُ عليَّ بدلاً من ان يسير الحزن في ركابي »

فلو كان لبيرون امٌّ فاضلة وزوج صالحة لكان غير ما كان . اراني احتج على الحياة ! اليست هي التي ارادت ذلك حتى ترى من الكآبة لمحات ونسمع انغاماً ما كان في الامكان رؤيتها وسماعها الاَّ كذلك . لكن شاعرنا يرتفع في لحظة اخرى فتسمو نفسهُ وينصرف عن الندب الى التبصر والاتعاظ فيقول في قصيدة موضوعها « انتصار الالم »

«ايها الالم . انت تليّن الانسان كما يلين اللهيب الحديد . . . فالذي لم يعرفك ايها المعلم لم يعرف من الحياة سوى اسمها الاجوف . بل يطفو على وجه الحياة كما لو كان طافياً على غيمة من غيوم الصيف اذ ليس لهُ اثرٌ يتركهُ وراءهُ . . . لا قطرة عرق من جبينهِ ولا دمعة تذرف من عينيهِ . . . ورجلهُ لم تجرحها الحجارة المنتشرة في طريقك»

***

لم عاش اللورد بيرون متشائماً ونثر كثيراً من تشاؤمهِ في شعره لكنهُ مات متفائلاً وهل من تفاءل اسمى من موت الجندي في ساحة الوغى ؟ يموت وكلهُ ثقة بالنصر يخالجهُ املٌ وتعلو ثغرهُ بسمة لانهُ يرى في موتهِ حياة لمبدإٍ وانتصاراً لعقيدة

١٩ ابريل ١٩٢٤ فؤاد صروف